اتين سانت هيلير

من علماء الحملة الفرنسية

للكاتب الفرنسي رنيه سمواز

لشوقي ضيف

في يوم قائظ من سنة ١٧٨٤ شوهد فتى في الثانية عشرة من عمره، منهمكا في البحث عن النباتات والحشرات. كان يتأبط حقيبة يضع فيها باعتناء ونظام الازهار والاوراق التي يقع اختياره عليها، وكان معه علبة لصون الحشرات التي تستحق العناية.

ولما انتهى عمله من جمع النبات والحشرات من نوع الخنافس جلس في ظل سنديانة، وجعل يدرس مجموعته الجديدة بنظارة خاصة ثم كان يدون ملاحظاته في دفتر صغير وكان مستغرقا في درسه حتى انه لم ينتبه لوجود الشيخ الذي كان راقب حركاته باهتمام واعجاب

رفع بصره لسماعه تحطيم غصن يابس، وجعل الشاب يلتفت الى مصدر الصوت فبادر الى أخذ لوازمه واستعد للرحيل لانه رأى شيخا واقفا بالقرب منه « قال له ذلك الشيخ لاضير عليك يابني » لاتقطع عملك لانه يهمني كثيرا، واني لسعيد في نزهتي هذه لانها دفعتني الى التعرف بك، واعركت تماما بانك مشغوف بالتاريخ الطبيعي، لاني كرست معظم حياتي لتعليم وتدريس هذا العلم. فاجابه الشاب: « نعم ياسيدي — لانه آنس بكلماته المشجعة — اني احب النبات والحشرات المختلفة كثيرا باشكالها والوانها. على انه ليس لدي سوى معلومات اولية من التاريخ الطبيعي. وعليه فاني اغتنم العطلة الكبرى لأكون مجموعة من نباتات هذا البلد ومن حشراته. » قال له الشيخ « هل لك ان تريني نتيجة ابحاثك؟ — فاجابه الفتى: سمعا وطاعة، ياسيدي، أرجوك أن تتفرل قصوري لاني مستجد في هذا العلم! »

فأخذ الشيخ المجموعة والدفتر، وأخذ يتأمل باعجاب دراسة هذا الحدث ثم قال. « يابني انك متواضع جدا لانك تطلب مني الصفح عن قصورك، بيد اني ارى هنا طريقة البحث واضحة ومعلومات وملاحظات هي فوق سنك. كل هذا حسن؛ ولكن قل لي اين تعلمت المبادىء الاولية للتاريخ الطبيعي؟ قال له الحدث. اعطاني ابي الدروس الاولى واكملت دروسي في كلية (ايتمب).

— فاستغرب الشيخ قائلا: وهل تسكن عائلتك هذه المدينة؟ — فاجابه الحدث بقوله. نعم ياسيدي، ان والدي هو نائب عام هذه المدينة —

— ماسمك يابني؟

— اسمي جوفروا سانت هيلير

— قال الشيخ، لاعجب بان تكون ذا ميل شديد للعلوم الطبيعية. لان ثلاثة من هذه الاسرة يدعون بجوفروا سانت هيلير كانوا اعضاء في المجمع العلمي فرع العلوم، وكان الاخير يسمى باسمك: اتيين سانت هيلير وكان احد الاساتذة الممتازين لحدائق النبات (حديقة الملك)

قال الفتى. — أراك ياسيدي واقفا على تاريخ اسرتي، مع أني لم أشاهدك قط في بيتنا! فاضاف الشيخ قائلا: صدقت يابني ولكن اعلم باني مطلع على تاريخ العلماء النابهين في العلوم لاني استاذ في حديقة النباتات وفي كوليج ده فرانس.

فاضطرب الفتى من هذه المصادفة حتى انه ما تجرأ ان يسأل الشيخ عن اسمه.

ولما عاد الى البيت قص على ابيه ماتوقع له، فتبسم ابوه وقال ان من صادفت هو العالم « دوبنتون الذي طبق اسمه اوروبا كلها. اني مسرور منك لاهتمامك بالعلوم. ولكن لاتنس ان رغبتي ورغبة امك هي ان تستعد لتعلم امور الدين كي تصبح يوما من حزب الاكليروس »

مولده

ولد اتيين جوفروا سانت هيلير، في (اتيمب) في ١٥ نيسان سنة ١٧٧٢ من والدين عريقين في الشرف، متوسطي الحال مثقفين ثقافة عالية، جدير بان ينتسب لهذه الاسرة الكريمة التي انجبت علمـــاء في العلوم الطبيعية والفيزيائية في غضون القرن

الثامن عشر .

فاعتنى الوالد بثقافة ولده ، ولا سيما جدته التي كانت ترى فيه مخائل الذكاء فقد كانت له خير موجه ومدرس اذ شرحت له منذ نعومة اظفاره كتب أعاظم رجال اليونان والرومان وكذلك ما ألف في عصر لويس الرابع عشر . حتى انه تفهم تاريخ اعاظم الرجال للمؤرخ (بلوتارك) على يديها في سن الحادية عشرة من عمره . نعم لقد ظهرت آثار هذه الثقافة فيه واكسبت نفسه قوة وشجاعة شديدة المراس .

حدث له إذ كان في العاشرة من عمره انه بينما كان يتنزه مع رفاقه في ضواحي المدينة سمع صوت اعوال وصراخ من اناس كانوا يطلبون الفرار فاسرع « اتيين » الى المكان ، فشاهد ويا لهول ما شاهـــد ! . نمر فتاة قد هاجمهـــا كلب والمسكينة جامدة مكانها لاحول لها ولا طول الا البكاء فاسرع صاحبنا الى كرمة واخذ من تحتها شعبا وارتمى على الكلب ضاربا اياه بشدة حتى ولى الحيوان الادبار. وتوارى في الاجمة القريبة .

وبعد ان اتم دراسته المنزليـة على ابويه وفي مدرسة مدينة ايتمب ، نال كرسيا مجانيا في كلية ناقا في باريس ، وتابع دراسته الادبية بسهولة وتفوق بالعلوم تحت ارشاد اساتذة علماء وهنا عما من فكره كل انتساب للاكليروس . واقدم بقواه جميعها على استقاء العلوم المحببة اليه . فتسجل طالبا في حديقة النباتات وفي كوليج دي فرانس ، حيث التقى ثانية بصديقه القديم دوبنتون وتتبع دروسه بكل رغبة ونشاط .

أما الدور الذي مثله اتيين اثناء سنوات الارهاب في الثورة الفرنسية فقد كان في آخر سنة ١٧٩٢ وعمره اذ ذاك عشرون سنة. وكان مستغرقا في دروسه حين قطع عليه الارهاب سلسلة دراسته ، على أنه لم يقطع اطيب الصلات واقواها مع اساتذته في كلية نافار ، وخاصة مع هاوي العالم في المعادن ولا هومون النحوي الشهير وعدد كبير من العلماء .

وكل هؤلاء الاعلام قد اوقفوا وزجوا في غياهب السجون لانهم كانوا متهمين بعملهم للملكية .

فمهما غاية جهده ولم يدخر وسيلة لانقاذهم من هذا المأزق باذلا النفس والنفيس حتى تكللت جهوده بالنجاح .

وعهدت اليه حكومة الكونفنسيون « بتدريس مادة العلوم الطبيعية بناء على اقتراح صديقه » دوبنتون فصار زميلا لهؤلاء الاعلام . « امثال لاسيد — وبرنارد ده سان بيير — وكوفيه ، وكلهم اكبر سنا منه

وكانت حديقة الحيوانات . قد تلاشت في الثورة المشهورة . واخذ العالم الجديد « اتيين » يجدد هذه الحديقة فقام بوظيفته خير قيام وعلا اكتاوحه .

اتيين والكرسي

ولما تسلمت حكومة الادارة الامور عهدت الى الجنرال نابليون بونابرت غزو مصر سنة ١٧٩٨ لقهر انكلترا التي لايمكن مهاجمتها في جزيرتها الصخرية = وبعد ان اتخذ قائد الحملة عدته قرر ان يستصحب بعثة من العلماء امثال « مونج - وبرتوله — ودونون » فقام برتوله وعرض على العالم الشاب اتيين باسم بونابرت وعلى زميله كوفيه ليكونا من اعضاء البعثة .

ولما تم احتلال مصر شرع « أتيين » في أعماله في التاريخ الطبيعي فجمع مجموعة طيور من ذوات الريش المحيب . وكتب في مذكراته « في هذا الفردوس الأرضي يفسي المرء نفسه بأنه ينبغي عليه أن يسكن الساكن المقفرة وأن يسعى وراء قوته مثل الحيوانات التي يدرسها . فكان يقوم كل منا بدوره بوظيفة الطاهي . ولكن عندما يكون دوري يضطر الرفاق إلى تناول المجففات » .

بيد أن الأمر لم يطل كثيرا لأن الأوامر صدرت من كليبر وده سيكس بضرورة الجلاء عن أرض الكنانة ؛ ولكن « إتيين » على وغم قرب الاحتلال الانجليزي وفشل حملة بونابرت لم ينفك عن العمل في مخبره كأن الأمر كان طبيعيا إذ لم يوقفه لحظة واحدة انفجار القنابل وأزيز الرصاص . كما كان ارخميدس في حصار سيراكوك ! .

دخل مخبره يوما زميله العالم فوريه وقال له . « يا صديقي انقطع عن العمل لأن الجنرال « مو » وقع على وثيقة التسليم ، وستعود بعثتنا إلى فرنسا . — فاجابه حمدا لله ! أن مجموعاتي